التعليم ووحدة الأمة

— ٥ —

للأستاذ عبد الحميد فهمى مطر

يسرنا أن نشهد فى هذه الأيام شيئاً من الاهتمام بمسائل التعليم وإصلاحه فقد رأينا نقاشاً يتردد بين بعض رجال التعليم فى الجرائد والصحف الأسبوعية مما يدل على هذا الاهتمام وعلى أن وزارة المعارف ترحب بالآراء الجديدة التى تتناول المشاكل التعليمية وتعمل لإنماء روح البحث والاجتهاد فى هذا الموضوع الجليل الشأن . غير أنى أرجو أن يتحول البحث إلى المسائل التى فى الصميم والتى تتغلغل فى روح المدرسة وروح النهضة التعليمية التى تنشدها البلاد .

فالبحث الذى دار فيه النقاش والجدل أخيراً كان خاصاً بزيادة مرحلة وسطى بين مرحلتى التعليم العام . والتعليم العام سواء اشتمل على مرحلتين أو ثلاث مراحل هو فى حاجة ماسة إلى إصلاح أهم وأعم لا يتناول مراحله فحسب ، بل يتناول نظمه ويتناول روحه حتى نحصل منه على الثمار المرجوة . ولقد تناول صديقنا الأستاذ فريد أبو حديد إحدى مسائله الهامة فى العدد ٣٣٣ من الثقافة . تناول مسألة المعلم فطالب وزارة المعارف إذا شاءت أن تعد البلاد للمستقبل الذى تنشده أمم العالم جميعاً أن تتجه اتجاهاً جدياً إلى المعلم ، وطالب الدولة كلها بأن تعين وزارة المعارف على ذلك وأن تحلها من كل قيد وأن تبذل لها من عنايتها ما يمكنها من أن تجعل المعلم روحاً حياً يبعث الحركة فى ناشئة البلاد . وهذا مطلب لا نشك فى أهميته ولا فى عدالته ولا فى ضرورته للنهضة التعليمية . ولقد سبق أن طالبنا الأمة به فى مواقف كثيرة ، وسبق أن أوضحنا ما للمعلم من أثر فعال فى تكوين أبنائه وفى بناء نهضة هذه البلاد ، وأنه هو العامل الحى الذى يبث الحياة فى النشء ويبصرهم بأمور الدنيا ويفتح عيونهم على ما يجرى حولهم فى الحياة . وهو القدوة الحية أمامهم بحاكونه فى أعمالهم ويتخذونه مثلا أعلى لهم ويقلدونه فى حركاتهم وسكناتهم ويلجأون إليه فى معضلاتهم . وإذا كنا نشكو اليوم ما فى المدرسة من جمود وخمود وما فى تلاميذها من استهتار وقلة تبصر وعدم اهتمام بمسائل الحياة وعدم إقدام خريجيها على العمل الحر المنتج فإنما يرجع الكثير من ذلك إلى خمود روح المعلم وجموده ، وإلى سيره فى حياته التعليمية على طريقة أوتوماتيكية خالية من البحث والتفكير والابتكار . وله العذر فى ذلك لأن الحالة القائمة بين جدران المدارس وفى تقدير كفايات المدرسين وأعمالهم لا تشجع مع الأسف على شىء من ذلك . فمعلم اليوم مكبل بقيود ونظم وتقاليد لا تسمح له بالتفكير فى مستقبل تلاميذه إلا فى دائرة محدودة جداً هى دائرة المنهج المقرر وعدم الخروج عنه لأى سبب من الأسباب ، والعمل على إنهاء دراسته فى المدة المحددة له حتى يستطيع طلابه اجتياز الامتحان . وهذا هو كل ما هو مسئول عنه . فهو بذلك معذور حقاً إذا لم يحاول أى عمل أكثر من إلقائه الدرس الملىء بالمعلومات التى لا تمت إلى الحياة بصلة فى الغالب مكررا على أسماع تلاميذه برغم أنوفهم تلك المعلومات التى لا تثير ميولهم ولا غرائزهم ولا تثير فيه هو ميلا إلى البحث والتفكير؛ لأن ما ذكره فى الأعوام الماضية يجىء فيكرره فى عامه الحاضر دون تنويع أو تحوير ما دامت الطريقة التى اتبعها من قبل قد أرضت المفتش والناظر وأدت إلى نجاح معظم تلاميذه فى الامتحان . هو معذور إذا لم يعمل عملا ما لتحسين حال تلاميذه من الوجهتين الصحية والخلقية لأن المدرسة لا يعنيها ذلك . وهو معذور إذا لم يحاول أن يعرف تلاميذه شيئاً عن الحياة وما يحيط بهم منها وما يتعلق بها داخل المدرسة وخارجها ، لأنه إن فعل ذلك أجهد نفسه فيما لا يقدره أحد ولا يشجعه أحد ؛ ويجد نفسه قد أضاع جزءا من الوقت الثمين المخصص لإنهاء المنهج الذى لا يقدر رؤساؤه غيره ، فلابد له من ملء الأدمغة وحشوها بكل ما جاء فيه مهما كان نوعه ومهما كانت قيمته بالنسبة إلى ميول التلاميذ . وما عليه من بأس مادام قد خلق المنهج فى أدمغة التلاميذ سواء أعرفوا شيئا عن الحياة بعد ذلك أم لم يعرفوا . ثم هو معذور إذا لم يعرف شيئاً عما يجرى فى مختلف البلاد المتحضرة من آراء حديثة وأفكار جديدة فى التربية والتعليم لأنه لا يتابع قراءة شىء عن ذلك . ولعل أكثر من تسعين فى المائة من المعلمين لم يقرأوا شيئا من مقالاتى هذه لما

يستشعرونه من رؤسائهم من عدم اهتمام أو عدم تقدير لكل تفكير جديد . ثم نحن محاطون بكثير من المدارس الأجنبية المنتشرة فى البلاد التى تتبع طرقا فى التعليم غير طريقتنا . فمن يا ترى من رجالنا فكر فى الاتصال بها ومعرفة شىء مما يجرى بين جدرانها ! فالمعلم المسكين لا يفتح عينيه إلا على تلاميذه ومنهجه ودرسه ! ثم هو معذور إذا لم يتعاون مع زملائه التعاون الضرورى لرفع مستوى التعليم فى معهده وتكوين الجماعات التعاونية بين طلابه ؛ لأنه مشغول بنفسه وبالدفاع عن قضية عيشه فى أوساط تكلفه أكثر مما يطيق وتغمط حقه فى الحياة ولا تقدر مسئولياته فيها ؛ ولأنه مشغول بالكر والفر بين زملاء يتنافر الكثيرون منهم معه فى الثقافة والتكوين ولا يتفقون معه فى الآراء ولا ينسجمون معه فى العاطفة والروح بطبيعة اختلاف ثقافاتهم باختلاف المعاهد التى نشأوا فيها .

لذلك نكلف المعلم شططا إذا نحن طالبناه بالخروج عن جموده إلى العمل الجدى والنهوض بتلاميذه ومدرسته ، لأنه مقيد بقيود تقف حجر عثرة فى سبيله بعضها يرجع إلى البيئة المحيطة به وبعضها يرجع إلى التعرفات التى تجرى فى محيطه التعليمى . فهو غالبا لم يدخل مهنة التعليم لحبه لها وشغفه بها كما يدخل غيره فى باقى المهن . ومعنى ذلك أنه مسوق إلى العمل فى مهنته برغم ميوله وإرادته . ولقد أثبت صحة هذا الرأى من زمن بعيد الخبير الفنى المسيو كلاپاريد فى تقريره عن حالة التعليم فى مصر تحت عنوان « النزعة البيداجوجية » إذ لاحظ أنه من بين الـ ٦٩ طالبا بمدرسة المعلمين العليا الذين وجهت إليهم أسئلة عن سبب اختيارهم لمهنة التعليم لم يختر منهم هذه المهنة بدافع الميل غير ٣١ طالبا أى أقل من النصف ؛ وأن كثيرين منهم التحقوا بهذا المعهد لأن معاهد أخرى رفضت قبولهم . ومعنى ذلك أن عدداً ليس بالقليل من المشتغلين فعلا بالمهنة البيداجوجية لا تتوفر فيهم النزعة الغريزية اليها . فاذا كانت هذه هى الحالة فى مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩٢٩ قبل إلغائها فإن الحالة لا زالت هى هى فى معهد التربية الذى أنشىء على انقاضها وفى دار العلوم وفى معاهد المعلمين والمعلمات التى امتلأت بالفتيان والفتيات لا رغبة فى مهنة التعليم وحبا فيها بل رغبة فى كسب العيش عن طريقها . ولذلك فإنا لا نجد فى خريجى هذه المعاهد من القائمين بأمر التعليم الآن إلا أناساً مسوقين بحكم وظائفهم مجبرين على العمل الذين يقومون به لا محبين فيه . ويزيد نفورهم من المهنة ما يقاسون فيها من عناء وكد واجحاف بالحقوق بالنسبة لأقرانهم وزملائهم فى المهن الأخرى . وما يقاسون فيها من تنافس وتنافر غير مشروع بينهم يظهر من آن لآن بسبب النزعات والثقافات المختلفة . ولذلك فإنا مقتنعون بأن الحجر الأساسى فى بناء نهضة التعليم فى مصر ينحصر فى تشويق الشباب إلى المهنة وتحبيبهم فيها بما يجب أن يوجد فيها من مغريات ومشجعات لا أثر لها فيها اليوم ، كما ينحصر فى العمل الجدى على توحيد ثقافات المعلمين بضم معاهدهم المتنافرة المتناحرة بعضها إلى بعض فى معهد واحد ليكون الجميع يدا واحدة متناصرين متعاونين متجهين جميعا الاتجاه الصحيح فى تفكيرهم وبحوثهم وعملهم فى سبيل وحدة الأمة المنشودة . وإنه لن يتم للبلاد ما ينادى به الزعيم الوطنى الكبير على ماهر باشا فى أن يتحد أبناؤها اتحاداً شاملا حرا وأن يكون هذا الاتحاد اتحادا فى القرية واتحادا فى الإقليم واتحادا فى عاصمة البلاد كما ذكر رفعته فى حديثه لمراسل جريدة الأهرام بتاريخ ١١ مايو سنة ١٩٤٥ ؛ أقول لن تتم لنا تلك الوحدة العزيزة المنشودة إلا إذا وضعنا أساسها بين معاهد تخريج المعلمين من اليوم ليكون المعلمون على مر الزمان دعاة تلك الوحدة وأنصارها والقابضين على زمامها فى القرية والمدينة والعاصمة . ولتكون المدرسة نواة الإصلاح الحق فى بناء تلك الوحدة وتدعيمها كما هو الحال عند غيرنا من الأمم التى سبقتنا فى مضمار الحياة الحرة الكريمة . وإنا لنغتبط كل الاغتباط بما جاء فى سياق حديث رفعته الممتع من حماس للوحدة القومية إذ قال : « وما دام الحق واحدا لا يتعدد فالوحدة القومية التى فيها إنقاذ شرف الأمة يجب أن تكتسح كل من يقف فى سبيلها » .

لهذا نأمل أن يعمل العاملون فى بناء هذه الوحدة فوراً على وضع أساسها وتدعيم جدرانها بتوحيد معاهد المعلمين وتوحيد ثقافاتهم حتى يبنى البناء الشامخ على أساس وطيد سليم لا تزعزعه العواصف بل لا تزيده إلا تماسكا وقوة وعزة ورفعة .

عبد الحميد فهمى مطر